مقدمة

الحسن والحسين

إذا ذكر اسم الحسن فلابد أن يذكر اسم الحسين فكأنهما كانا مخلوقاً واحداً يحمل هذين الاسمين .

١ – كلاهما فيض من نفسي على وفاطمة – حتى كأن الله قسم بينهما كل هباته ومننه بالعدل .

٢ – وإنه من اسم أولهما اشتق اسم الثاني .

٣ – وولادتهما متقاربة واستعدادهما كان واحداً إذ نشآ في بيت واحد ونبت لحمهما على نفس الغذاء .

٤ – وتوافر على تربيتهما أشخاص بعينهم فرويا من معين واحد فاجتمعت فيهما أمور تجيز لمن عرفهما – لولا تفاوت في الطبائع والهيئة الخارجية – أن يقول : الحسن أرى أم الحسين .

٥ – دخلا الحياة من باب واحد وافترقا يقصدان هدفاً معيناً ثم خرجا منها عن طريقين مختلفين والتقيا فيها .

ولم يباعد بينهما التباين في تصرفاتهما لأنهما قد نشدا الضالة ذاتها ، وكانا بحق من سلالة بيت أبي طالب الذي عبد الله حق عبادته وعرفه

حق معرفته فقدم الأنفس الزكية قرابين فى سبيله ، وإنه لبيت ينسى نفسه عندما يذكر الدين .

٦ – وهناك تشابه فى الصراع بين الحسن ومعاوية ، والصراع بين الحسين ويزيد ، كلاهما صراع دين ودنيا أو حق وباطل ، من أجل ذلك سلّم الحسن ملك المسلمين إلى معاوية بشروط لئلا يضرب الأمة بعضها ببعض من أجل منصب فتكون من ثم نهاية الخلافة والخلفاء ، ففعل ما فعله أبوه يوم حُمل على قبول التحكيم ثم لاقاهما الحسين بنفس النتيجة النهائية : التضحية .

٧ – وفى أيام الإمام على كان الجيشان ضخمين ومتقاربين بالعدة والعديد .

٨ – وفى أيام الحسن كاد الجيشان يتقاربان بالعدة والعدد لولا الخيانة والغدر .

٩ – ويوم الحسين كان الجيشان مختلفين أشد الاختلاف بالعدة والعدد ، فموقفهم جميعاً ليس فيه سذاجة ولا ارتجال ولا تهور بل كلها تبصر وتدبر ، لأن السبط الأول لم يرغب بنفسه عن الناس ولا رغب أخوه فى منفعة ذاتية كما لم يرغب أبوهما عن المنفعة العامة .

١٠ – ولابد أن نذكر أن الحسن قد يختلف قليلا عن أخيه – كما أن معاوية غير يزيد قطعاً .

وينبغى أن لا نخلط بين ظرف وظرف ومجتمع ومجتمع ومناسبة ومناسبة

فالحسن حليم – بله إنه الحلم مجسماً .

ومعاوية متعرض يأخذ إذا تمكن ويترك إذا لم تُعطه الظروف . والحسين فادٍ بل إنه الفداء الرمزى مخلوقاً فى شخص ، ويزيد أحمق وهو الحمق مجسداً على الأرض .

ولنترجم هذا إلى أن الحسن لو ثار فى زمن معاوية لصالحه كما صالحه أخوه بعد أن يرى جيشاً يكثر عدد الخونة فيه وأن الحسن لو كان فى زمن يزيد لثأر ولقتل كما قتل أخوه دون أن يتردد فى تضحية فئة قليلة من الرجال والنساء والأطفال .

فالحسن والحسين وإن اختلفا بالواسطة فقد اتفقا بالغاية وضحيا فى سبيل ما عملا من أجله تضحيتين مختلفتين ، هذا بجاه الدنيا وزينتها وذاك بالدنيا وبالنفس الغالية .

والمعادلة أخيراً ليست صعبة .

فالحسن مع معاوية يساوى الحسين مع يزيد .

أوالحسن مضروباً بمعاوية يساوى الحسين مضروباً بيزيد .

ويروى (جندب الأزدى) أنه دخل على الحسن بعد الصلح مع جماعة وقالوا له . . . فأجاب . . ودخلنا على أخيه الحسين وهو يأمر غلمانه بالخروج إلى المدينة فجاءنا وسلّم علينا وجلس معنا ، ورأى فى وجوهنا الكآبة والحزن فسبقنا بالكلام – وقال :

الحمد لله كما هو أهله – إن أمر الله كان مفعولا وإن أمر الله كان قدراً

مقدوراً - إنه كان أمراً مقضيًّا . والله لو اجتمعت الإنس والجن على الذى كان ألا يكون لما استطاعوا ، والله لقد كنت طيب النفس بالموت حتى عزم علىّ أخى الحسن وناشدنى الله ألا أنفذ أمراً ولا أحرك ساكناً فأطعته ، وكأنما يجدع جادع أنفى بالسكاكين ويشرح لحمى بالمناشير ، وقد قال الله تعالى : (عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . . .) .

الآن كان صلحاً وكانت بيعة ولننظر ما دام معاوية حيًّا فإذا مات نظرنا ونظرتم هذا ما قاله الحسين بعد الصلح بأيام ، ثم حفظ موثق أخيه طيلة أيام معاوية كما وعد أصحابه ، فقد اجتمع عليه الأصحاب بعد وفاة أخيه يعزونه وكتب له كثير منهم يستحثونه على الثورة فكان دائماً يقول : (معاذ الله أن أنقض عهداً عهد به أخى الحسن) .

ألم يكن باستطاعة أبى الشهداء الإمام الحسين أن يجمع الذين جمعهم أخوه ويزيد عليهم بما أوتيه من حماس ليثور بوجه معاوية ؟ - ولم أجل ثورته وما الذى قعد به اليوم ؟ - لم يقعد إلا اعترافاً بما فعل سيده - ولم يتغاض إلا لذات الأسباب التى حملت أخاه على التغاضى والقعود . . فقد تحرك العراقيون إذاً بعد وفاة الحسن وكتبوا لأخيه يبايعونه ويخلعون معاوية - وقد امتنع هو عنهم وذكر العهد الذى لا يجوز نقضه حتى تنقضى المدة ووعد بأن ينظر فى الأمر بعد موت الرجل .

فقد كان الحسن يعرف - من الظواهر كثيراً مما يلى عهد معاوية

فهو فى الحقيقة الممهد للنُّهزة المنتظرة لأنه يرى غوغاء عهده لا يرون كبير فارق بين ولايته وولاية معاوية ، فليترك الأمر حتى يتبين الخبيث من الطيب فمن غير المعقول أن يكون غير ما كان .

فمسالمة الحسن لخصمة كمجاهدة الحسين لعدوه .

ومدّ يد الأول لمعاوية كتقديم الثانى نفسه لمدية يزيد إذا اعتبرنا الصافى من نتائج الصلح ونتائج الثورة لأحد السبطين قد فعل ما يجب عليه مع مراعاة الواجب والظرف . ولأن الثانى قد فعل ما لزمه وقام بالواجب الذى حتمه الظرف .

فمبايعة الأول لمعاوية المجهول من جل معاصريه كمحاربة الثانى ليزيد المشهور لدى جل معاصريه .

وفى تحمل الحسن للذل عزّ وذلت دعوة الأمويين وافتضح أمرهم كما أن فى تحمل الحسين للقتل عاش وماتت دعوة الأمويين ! فلم يرغب الحسن بنفسه عن الصلح العام عند عرض شروط ملائمة ولم يقل الحسين يوم الطفّ إلا :

إن كان دينُ محمدٍ لم يستقم إلا بقتلى يا سيوف خذينى

والحسن والحسين يتفقان فى الأمور الروحية والأوامر الربانية — وإذا انعدمت الأمور الروحية أو ألغيت الأوامر الربانية فقد انعدم كيانهما وألغى وجودهما لأنهما إن تعريا من ذلك فما تبقى لهما من صورة ولا تبقى لحياتهما من ضرورة ألبتة .

ولنلتفت إلى أن معاصريهما وجميع من لحق بمعاصريهما لم يحكموا لأحدهما أو على أحدهما بما نجّوا منه الثانى -- بل كانا فى وزن واحد وباعتبار واحد يكفى لتقريبه إلى كل ذهن – وإلى الأبد – أن يقال : هذا الحسن وذاك الحسين .

فهم سبطا محمد وابنا على وفاطمة وإمامان معصومان قاما فى طلب الأمر أو قعدا عن طلبه وسيدا شباب أهل الجنة بنظر الناس إلى يوم يبعثان . . من أحبهما – كما نقل الخدرى – تساقط الذنوب عنه كما تُساقط الريح الورق عن الشجر .

ولذا قال الإمام الشافعى :

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض
إن كان رفضاً حبّ آل محمـــدٍ فليشهد الثقلان أنى رافضى